أ.د. مولود عويمر
أستاذ بجامعة الجزائر 2

المؤرخة السورية الدكتورة ليلى الصباغ في ذكراها العاشرة

كانت أول إمرأة سورية تنال شهادة الدكتوراه من جامعة القاهرة. وكانت أول رئيسة لقسم التاريخ بجامعة الجزائر. وكانت أول إمرأة عربية تنتخب في مجمع اللغة العربية... هذه المرأة الرائدة هي المؤرخة السورية الدكتورة "ليلى الصباغ" التي توفيت قبل 10 سنوات بعد حياة حافلة أمضتها في التعليم والتربية والبحث العلمي والعمل الثقافي.

بمناسبة هذه الذكرى، نقف مع القارئ وقفة تأمل ووفاء نذكّر من خلالها بمحطات من حياتها في سوريا ومصر والجزائر، وننبّه إلى أعمالها المطبوعة القيّمة، وندعو إلى نشر ما هو مازال مخطوطا.

محطات ومسارات

وُلدت الدكتورة **ليلى الصباغ** بحي الصالحية بدمشق سنة 1924. توفّي والدها عبد اللطيف الصباغ في رحلة إلى الحج وهي مازالت طفلة صغيرة، فتكلف جدها من أمها برعاية أسرتها المكونة من أمها وأخيها فيصل وأختها الكبرى حياة. وكانت منذ صغرها «جدية إنسانة نذرت نفسها كلية للعلم ولا شيء غيره»[1]، درست في مدارس دمشق ونالت شهادة باكالوريا (الفلسفة) بامتياز في سنة 1943.

استفادت من منحة من وزارة المعارف السورية فسافرت في العام نفسه إلى مصر وانتسبت إلى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة فدرست 4 سنوات وتحصلت على الليسانس في التاريخ في سنة 1947. وأعدت رسالة الماجستير حول (الفتح العثماني لسوريا ومطلع العهد العثماني فيها)، وناقشتها في عام 1961. ونشرت القسم الثاني من رسالتها في عام 1973 في كتاب بعنوان: (المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني) ضمن منشورات وزارة الثقافة السورية.

اشتغلت الأستاذة **الصباغ** في الثانويات السورية مدرّسة ومديرةً ثم مفتشةً، وأحبت التعليم وخدمته بكل ما تملك من طاقة وخبرة وشغف. وكان تدريس التلاميذ والإشراف على تكوينهم العلمي وتربيتهم الحسنة من أحب الأعمال إليها. وهذا ما يشهد به كل من درس عليها أو عاش معها من أفراد عائلتها مثل ابن شقيقها المهندس **عامر الصباغ** إذ قال في هذا المعنى: "ومع أن عمتي تنقلت بين مناصب شتى، فإن حبها الأكبر بقي للعمل التربوي للإدارة والتدريس. وكثيرًا ما كانت الذكريات تحملها إلى تلك الأوقات السعيدة فتحكي لنا بفيض من الحنين عن تلك الحقبة التي كانت فيها مديرة لثانويتي البنات الأولى والثانية، كانت تغادر بيتها متجهة إلى المدرسة قبل شروق الشمس ◆◆◆

(1) حفل تأبين الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ. منشورات مجمع اللغة العربية، دمشق، 2013، ص 39.

ولا تعود إلا بعد المغيب واقفةً جهدَها وكلَّ وقتها لتطوير العملية التربوية، برفد المدرسة بالنشاطات المختلفة، حيث اقتنت ما يلزم من أدوات وأجهزة رياضية وآلات موسيقية حتى البيانو، إضافة إلى الإذاعة المدرسية ومجلة الحائط والمكتبة والمخبر والرحلات المدرسية حتى إلى أوروبا، وكلها تعد من الأشياء الجديدة في المدارس السورية. وإن المرء ليعجب حين يرى لديها هذا العدد من الصناديق الملأى بعشرات الدفاتر والمذكرات المكتوبة بخط اليد فيما يتعلق بالمناهج والمدرسات والطالبات والنشاطات المدرسية وجداول مرسومة ومنظمة بدقة فائقة".[2]

> كانت الساعات تنقضي وهي جالسة بين أكداس الأوراق والكتب تبحث وتنقب وتكتب بدأب لا يعرف الكلل.

ومع ذلك بقيت دائما متعلقة بطموحها في التحصيل العلمي العالي فرجعت إلى مصر وأعدت أطروحة الدكتوراه تحت إشراف المؤرخ المصري المعروف الدكتور **محمد أحمد أنيس** وكان موضوعها: (الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني خلال القرنين 17 و18م) ومنحتها جامعة القاهرة شهادة الدكتوراه في التاريخ في عام 1966 بمرتبة الشرف الأولى. وقد اعتمدت في عملها في المقام الأول على قراءة وثائق المحاكم الشرعية التي تحصلت عليها من مراكز الأرشيف في سوريا وتركيا وإيطاليا وفرنسا، وتحليل محتوياتها الخامة. ونشرت هذه الأطروحة في جزأين في عام 1989 في بيروت عن مؤسسة الرسالة. وقد نال هذا الكتاب القبول والتقدير والتقريظ من طرف الباحثين.[3]

انتقلت إلى جامعة دمشق لتعمل أستاذة في كلية الآداب، وكانت لها طريقة مميّزة في التدريس نقلتها عنها إحدى طالبتها النجيبات، الدكتورة **نجاح محمد** التي وجدت صعوبة في التدريس في بدايات التحاقها بالجامعة فنصحتها الدكتور **الصباغ** مرشدة فقالت لها: "طريقة التدريس في الجامعة ليست امتدادا لطريقة التدريس في المرحلة الثانوية، وإنما هي قائمة على البحث والتحليل العلمي لقضايا معينة تفيد المجتمع والوطن والأمة".[4]

وهكذا استمرت في أداء رسالتها في التعليم العالي بشغف وتفانٍ حتى نالت حقها من التقاعد فتفرغت بعدً ذلك للكتابة والعمل الفكري والثقافي إلى أن التحقت بالرفيق الأعلى في يوم الأربعاء 6 فبراير 2013.

إنتاجها التاريخي وأعمالها الفكرية

"كانت الساعات تنقضي وهي جالسة بين أكداس الأوراق والكتب تبحث وتنقب وتكتب بدأب لا يعرف الكلل". هكذا وصفها أحد المقربين منها. وقد تجلى هذا الجهد العلمي المستمر في البحث والتنقيب والقراءة والكتابة في إنجاز أعمال رصينة في مجالات متعددة وموضوعات مختلفة أذكرها هنا: "المجتمع السوري في مطلع العهد العثماني (دمشق/ 1973)"، "المرأة في تاريخ العرب قبل الإسلام" (دمشق/ 1975)، "الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني" (بيروت/ 1989)، "فلسطين في مذكرات الفارس دارفيو" (دمشق/ 1996). وكانت جادة في عملها في الجامعة وتحضّر

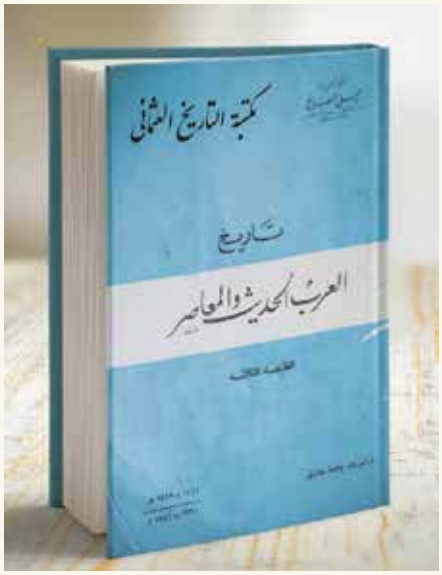

الدروس بتفان، وتبذل قصارى جهدها في تكوين طلابها. وقد ظهر ذلك بوضوح من خلال ما نشرته من تلك المحاضرات في كتب قيّمة: "دراسة في منهجية البحث التاريخي" (دمشق/ 1979)، "معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث" (دمشق/ 1980) و"تاريخ العرب الحديث والمعاصر" (دمشق/ 1980). وأصبحت هذه الكتب الثلاث المطبوعة مقررة على الطلبة في العديد من الجامعات العربية.

وكانت تساهم في الحياة الاجتماعية والثقافية في سوريا وقدمت مجموعة من المحاضرات في "جمعية الندوة الثقافية النسائية" في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. كما كان لها حضور في الإذاعة السورية. وقد جمعت تلك المحاضرات ونشرتها في كتابين: "من الأدب النسائي المعاصر العربي والغربي" (دمشق/ 1996)، و"نساء ورجال في الأدب والسياسة وإصلاح المجتمع" (دمشق/ 1996).

واهتمت أيضا بالتحقيق فحققت مخطوط "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" للمؤرخ **محمد الأمين المحبي** (دمشق/ 1986). وتميّز عملها بالتدقيق والتعليق والتوثيق، فقد كتبت مقدمة طويلة حول السياق التاريخي وانتقدت الدراسات العثمانية السابقة التي كانت تصور الواقع الثقافي العربي تصويرا مأساويا في ظل حكم الدولة العثمانية وهذا حكم ليس منصفا، وشرحت وجهة نظرها المختلفة مستشهدة بأمثلة تاريخية ومنها ما جاء في هذا المخطوط الذي حققته وما يحتويه من المعلومات المدعمة لرأيها. كما كتبت ترجمة وافية لصاحب الكتاب. وحققت أيضا مخطوط "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية" **لمحمد أبي بكر السرور البكري** المتوفى في عام 1619م (دمشق/1995). وقد عثرت على هذا المخطوط النفيس في الجزائر لما كانت أستاذة زائرة بجامعتها.

(2) عامر الصباغ، كلمة تلامذة الفقيدة. مصدر سابق، ص 42.
(3) عبد النبي أصطيف. ليلى الصباغ وكتابها: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني. مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد 89، الجزء 3، أفريل 2017، ص 736-731.
(4) نجاح محمد. كلمة تلامذة الفقيدة. مصدر سابق، ص 34.

> الإعلام يعمل في بيئة تَنافُس، بل في بيئة صراع أو سمِّه حرب معلومات، وفي الدعاية يشيطن كل طرف خصمه وينزع منه الصفة الإنسانية.

نشرت أيضا العديد من المقالات والبحوث في المجلات العربية، وأذكر منها: "مجلة مجمع اللغة العربية" (سوريا)، "المعلم العربي" (سوريا)، "الأصالة" (الجزائر)، "المجاهد الثقافي" (الجزائر)، "المجلة التاريخية المغاربية" (تونس)، "آفاق الثقافة والتراث" (الإمارات العربية المتحدة)، "أوراق" (إسبانيا). وحقا، لا أدري لماذا لم يتكفل بعد مجمع اللغة العربية الذي تنتمي إليه أو جامعة دمشق التي قضت فيها فترة طويلة من عمرها بطباعة دراساتها ومقالاتها المنشورة المغمورة أو غير المنشورة، وهي كثيرة.[5]

لم يمنعها نشاطها التربوي والثقافي في سوريا من المشاركة في المؤتمرات العلمية الدولية، وهكذا قدمت محاضرات وبحوثا في ملتقيات علمية في الجزائر، وتونس، ومصر والإمارات العربية المتحدة وفرنسا... الخ. وقد نشرت عددا منها ضمن الأعمال المطبوعة لتلك المؤتمرات.

كانت الدكتورة **الصباغ** متفتحة على المدارس التاريخية المعاصرة وهذا بارز بشكل واضح في كتابها المعتمد: "دراسة في منهجية البحث التاريخي". واستفادت من هذه المدارس الغربية من حيث الموضوع والمنهج، والاشتغال بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي دون أن تهمل بعد ذلك تاريخ السير وخاصة سير النساء الرائدات في التاريخ الإنساني.

وكانت ترى أن المؤرخين المسلمين اهتموا كثيرا بتاريخ البلاط وأهملوا تاريخ العامة

والمجتمعات. قالت في هذا الشأن: "لا بد عند دراسة التاريخ العربي بكل مراحله وحقبه، أن يؤكد على تطوّر المجتمع من النواحي الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والفنية، وأن تظهر الأمة من خلال الدراسة وحدة تتحرك من ذاتها، وتندفع بديناميكيتها الخاصة. وما دور السلطة الحاكمة -وبخاصة الفردية- سوى عنصر من عناصر الدفع والتأثير"[6].

وكانت واعية بالعمل العمل الجبار الذي ينتظر المؤرخ العربي ليحرر تاريخه من القراءات الأيديولوجية والأحكام المسبقة وتصحيح الأغلاط التي احتوتها عدد من الدراسات الاستشراقية وليس كلها، ولا يقدر على ذلك إلا بالاستعانة بطرق البحث الحديثة وإتقان العمل والتعاون المثمر بين المؤرخين العرب. قالت في هذا الشأن: "لقد آن الأوان لإعادة تقويم الحضارة العربية في الفترات التي وصفت بالانحطاط والتدهور وعلى المؤرخ العربي المعاصر بالذات، أن يدخل ميدان الدراسة العلمية التاريخية العميقة، وهو خالي الذهن من أية أفكار مسبقة، وأن ينكّب بشهية وإقبال على تراث تلك المرحلة بكل فروعه وميادينه، وأن يمعن فيه تحقيقاً، ودرساً، وتنقيباً، وتعديلاً وتجريحاً، وأن يقومه بتجرد، وبالنسبة لذلك العصر نفسه ومقوّماته، لا بالنسبة للتطوّر الحضاري الذي نعيشه في الربع الأخير من القرن العشرين. ولا بد من التعاون في هذا المضمار، في ميدان تبادل الوثائق والدراسات بين الباحثين العرب وجميع المهتمين بدراسة هذه المرحلة، وذلك للوصول إلى الحقيقة، ووضع الأمور في نصابها الصحيح"[7].

وتوّج هذا المسار الحافل بالانجازات العلمية والثقافية والتربوية بانتخابها عضوةً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي أول إمرأة عربية تنال هذا الشرف العلمي وتحظى بهذا

(5) عبد الحليم سويدان. كلمة الأستاذ الدكتور عبد الحليم سويدان في حفل استقبال الأستاذة الدكتورة ليلى الصباغ. مجلة مجمع اللغة العربية. المجلد 76، الجزء 2، 2001، ص 404-402.

(6) حوار سريع مع مؤرخة عربية: الدكتورة ليلى الصباغ. المجاهد الأسبوعي، العدد 784، 24 أوت 1975، ص 22.

(7) ليلى الصباغ. من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول. الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1986، ص 39.

المنصب. وقد استقبلت بشكل رسمي في 21 فبراير 2001 في حفل بهيج حضره نخبة رجال الفكر والأدب والعلم في سوريا. كما منحها مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية في عام 1997 جائزة "التميّز في البحث".[8]

> انتدبت للتدريس بجامعة الجزائر كأستاذة زائرة بين 1966 و1968 . وقد كانت تطمح في المساهمة في تحقيق مشروع التعريب في بلادنا، والمشاركة فيما اعتبرته واجبا مقدسا في استعادة الوجه الثقافي العربي للجزائر.

ليلى الصباغ في الجزائر

انتدبت الأستاذة **الصباغ** للتدريس بجامعة الجزائر كأستاذة زائرة بين 1966 و1968. وقد كانت تطمح في المساهمة في تحقيق مشروع التعريب في بلادنا، والمشاركة فيما اعتبرته "واجبا مقدسا في استعادة الوجه الثقافي العربي للجزائر"، فبالإضافة إلى التدريس في الجامعة وتكوين الطلبة والباحثين، وإدارة قسم التاريخ، كانت تشارك في النشاطات التي تنظمها المؤسسات الثقافية والعلمية داخل الحرم الجامعي وخارجه.

واستمرت على علاقة طيبة مع طلبتها الجزائريين الذين لحق بها بعضهم لتشرف على أطروحاتهم في جامعة دمشق. وأذكر هنا على سبيل المثال **عمار بن خروف** الذي أعد تحت إشرافها رسالة الماجستير حول موضوع: "العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517-1659". ولما سئل عن تأثيرها عليه أجاب الأستاذ **بن خروف**: "إن كنت أنسى فلا أنسى أبدا الفترة الذهبية التي كنت أتمتع فيها كل أسبوع بلقاء ثري مع المشرفة ليلى الصباغ، التي كانت تزودني بتوجهات مهمة في كل لقاء عن كل مبحث أُقدمه لها، ولا سيما في الجانب المنهجي الذي لها باع كبير فيه، لا يضاهى، ولها دراسة متميزة فيه، بعنوان: "دراسة في منهجية البحث التاريخي"، طبعت أكثر من عشر مرات. وكنت أحرص على حضور محاضراتها والاقتداء بها، مما إنعكس إيجابيا على أدائي مع طلبة الجامعات التي اشتغلت بها".[9]

كما أنها شاركت في مناقشة رسالة الدكتوراه في جامعة الجزائر التي أنجزها الطالب علي سلطان حول "حياة الأمير فيصل وسياسته في سوريا بين 1918-1920".

كانت جامعة الجزائر تنظم ندوات تاريخية وفكرية بعنوان "ندوة الأساتذة"، ويشرف عليها الدكتور **أبو القاسم سعد اللّه**. وشاركت الدكتورة **الصباغ** في الندوة الأولى حول "دور الجامعة في العالم الثالث" التي انعقدت في قاعة المحاضرات في الجامعة يوم 27 جانفي 1968، وساهم فيها أيضا الدكتور **عبد الرحمن الحاج صالح**، وأدارها الدكتور **سعد اللّه**.

وأعقبتها مناقشات وأسئلة أثارها الأساتذة والطلبة الحاضرون في القاعة. وقد كانت هذه الندوة "ناجحة جدا، وحضرها جمع غفير" كما وصفها الدكتور **سعد اللّه**. ونشرت مجلة "المجاهد الثقافي" وقائع هذا النشاط الفكري في عددها الخامس.

(8) محمود الحسن. الدكتورة ليلى الصباغ أول إمرأة عربية في مجمع اللغة العربية. مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 2018، ص 43.

(9) الشعب، العدد 3227، 10 أفريل 1974، ص 3.

كما كان لها مشاركات في ملتقيات الفكر الإسلامي التي نظمتها وزارة الشؤون الدينية الجزائرية إذ رصدت أول محاضرة لها في عام 1974 في الملتقى الثامن المنعقد في مدينة بجاية بين 25 مارس و5 أفريل 1974. وقدمت خلال هذا المؤتمر محاضرة بعنوان: "وضع الجاليات الأوروبية في العالم العربي الإسلامي إبان الحكم العثماني".
وبعد اختتام المؤتمر في بجاية استمر نشاطها في الجزائر العاصمة حيث استقبلها إتحاد الكُتاب الجزائريين يوم 8 أفريل 1974 في مركزه بالجزائر العاصمة رفقة الوزير المثقف الأستاذ **مولود قاسم نايت بلقاسم**، وقدمت هناك محاضرة حول الشباب، وتابعتها مناقشات في داخل القاعة وفي جريدة "الشعب" اليومية.[10]

والشباب في نظرها معرضون للخطر جراء الغزو الثقافي الذي اخترق المجتمعات العربية، وهم غير مؤهلين روحيا ووجدانيا ومعرفيا وثقافيا لمواجهة هذه التحديات القائمة والقادمة. فصار تأهيله وتكوينه ليكون في مستوى هذه التحديات من صميم مهام المجتمع كله وليس مسؤولية الشباب وحده.
قالت الدكتورة **الصباغ** في هذا السياق: "إن الشباب الذين ينقلبون على مجتمعهم وقيمه ويتمثلون سلوك مجتمعات أخرى وحيثما هم جاهلون في الواقع لحقائق تلك القيّم، وقد يكون المربي هو المسؤول عن ذلك الجهل أو التشويه أكان أبا أو أما أو معلما أو أخا. فالحل العملي لهذه المشكلة المنوه عنها هو التربية على المعرفة العميقة والواسعة متفاعلة مع والإرادة والعمل، ويدخل في إطار هذه المعرفة بداهة الدين الإسلامي وقيمه والحضارة العربية الإسلامية، وتكون فيها الركائز الأولى والكبرى".[11]

ولم يقتصر نشاطها في الجزائر عند هذا الحد بل عادت في السنة المقبلة لتشارك في الملتقى التاسع المنعقد في مدينة تلمسان بين 10 و19 جويلية 1975 وألقت فيه محاضرة عنوانها: "ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ/ 1568م والدولة العثمانية".
وقامت مجلة "الأصالة" الصادرة عن تلك الوزارة بنشر النصين في عددها 25 ثم عددها 27.

الدكتورة الصباغ مع أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق

وكما نشرت لها هذه المجلة دراسات حول الخليفة "**عبد الملك بن مروان**" (ع 24)، وأخرى حول "عناية بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي" (ع 34-35). وكانت معجبة بصرامة تنظيم هذه المؤتمرات وحسن اختيار موضوعاتها وتوفيقها في انتقاء الأساتذة المحاضرين وانفتاحها على الطلبة[12] لذلك كانت تعلّق آمالا كبيرة على هذه المؤتمرات الفكرية التي "لو تعددت في أنحاء العالم لزاد ثمرها على البلدان التي تنعقد فيها وعلى المسلمين والفكر الإسلامي".

وكانت لمحاضراتها أصداءً في قاعة المؤتمرات لما أثارته من نقاشات مع الأساتذة والطلبة وكذلك في ما نشرته الصحافة من تغطيات لوقائع هذه الملتقيات، وحوارات وأحاديث أجراها معها الصحافيون في الصحف والمجلات الجزائرية: "المجاهد الثقافي"، "الجيش"، "الجزائرية"، "الشعب" و"النصر".

لقد كانت الدكتورة **ليلى الصباغ** نموذجا للمرأة العربية في المجالات المتعددة، عاشت تحديات كثيرة وتغلبت عليها، واستطاعت أن تجد لنفسها مكانة عالية في عالم الفكر والمعرفة، وتكون رائدة في عدة مجالات الحياة والعلم، ومازال طلبتها يواصلون رسالتها التربوية والتعليمية والفكرية بوفاء وتفان وينقلون قيمها ودروسها للأجيال الحاضرة والقادمة ◇◆

(10) حوار مع الدكتورة ليلى الصباغ. مجلة الجيش، العدد 123، جوان 1974، ص 30.
(11) الدكتورة ليلى الصباغ تتحدث لجريدة النصر، 5 أفريل 1974.